الحـــارس

لجى دوموپاسان

بعد أن فرغنا من تناول الغداء ، كان قد بدأ صديق لنا قديم وهوالسيد (بونيفاس) يسرد علينا حوادث ومخاطرات جرت له أثناء الصيد ، وهومشهور بالصيد وشرب الخمر ، جلد ، بشوش، ذوتفكيرناضج ، وشعور حي ، وله فلسفة تهكمية تظهر بها نفسيته عند المداعبة القارصـــة ، ولا تظهر أبدا اذا تكلم بحزن . قال لنا فجاءة :

إنني أعرف حادثة صيد ، أو بالأحرى مأساة صيد فريدة في بابها ، لا تشبه أبداً الحوادث التي نعرفها ، وإنني أعلم أني لم أقصها عليكم من قبل ولا على غيركم ، لأنها لا تسلي أحداً ، فهي ليست عاطفية ، أريد أن أقول أنه ليس لها هذا النوع من اللذة التي تشوق السامع أو التي تسحره ، أو التي تذهله ، وها كم الحادثة :

كان عمري آنئذ يناهز الخامسة والثلاثين ، وكنت اصطاد بقوة الشباب ، وكنت قد اقتنيت في ذلك الوقت قطعة أرض منعزلة في احدى الضواحي محاطة بالغابات وهي مأوى طيب للارانب . ذهبت اليها مرة وقضيت فيها واحدى أربعة أيام أو خمسة لأنني لم أتمكن من اصطحاب أحد الاصدقاء . مكثت هناك كالحارس أو كشرطي متقاعد شجاع شديد البأس على باب قلعته ، وكنت لا أخاف شيئاً . وكان بالقرب من أرضي ، بيت صغير منعزل أو بالأحرى كوخ يتألف من غرفتين سفليتين ومطبخ . وغرفة للطعام ، وغرفتين علويتين ، احداهما صغيرة لا تتسع لا كثر من سرير ومرآة وكرسي وهي التي استأجرتها ، وكان يشغل الثانية (كافالييه) الهرم ، وقد قال لي أنه وحيد في مسكنه . فأقمت عنده باسم مستعار ثم أسكن معه حفيده ، وهو من الأشقياء تبلغ سنه أربعة عشر عاماً كان يذهب من حين الى آخر الى القرية التي تبعد ثلاثة كيلومترات وكان يساعد الكهل في أشغاله اليومية .

كان لهذا الشقي الطويل الهزيل المحدودب قليلا ، شعر أصفر اللون خفيف يشبه ريش الدجاجة المقصوص ، حتى ان من يراه يحســـبه أصلع ، وله كذلك قدمان ضخمتان ويدان جبارتان كيدي المارد ، عينه حولاء قليلا ، وكان اذا مشى لا يرى أحداً فهو الى الحيوانات أقرب منه الى الانسان لأنه يشبه الثعلب.

كان ينام في ثقب صغير في أعلى الدرج وكان يدعى «ماريوس» ولكنه تخلى عنه اثناء اقامتي هناك لامرأة مسنة تدعى « سيليست » كان الكهل قد أتى بها لصنع الطعام .

قد علمتم الآن الاشخاص والمكان فها كم الحادثة :

نحن في ١٥ أكتوبر سنة ١٨٥٤ وهو التاريخ الذي لا أنساه أبداً . خرجت ذات صباح من روان ممتطيا صهوة جوادي يتبعني كلبي « بوك » ذو الصدر الواسع واللسان الحاد والاسنان القوية، التي تخترق الاشواك .

وكنت مرديا حقيبة سفري وبندقيتي ، وكان يوماً شديد البرد، عاصـــف الهواء رطبه ، كثيف السحاب مسرعة ، وكنت أرى من الشاطىء وادي السين الواسع الذي يمتد ماؤه حتى الأفق ماراً بأوكار الثعابين على ضفتيه ، وكان النظر يمتد على الضفة اليمنى حتى يقف على الشواطىء البعيدة المستورة بالغابات ، ثم اجتزت غابة رومار ، مبطئا تارة ومهرولا أخرى حتى كنت في الساعة الخامسة تقريبا أمام البيت حيث كان الكهل والعجوز ينتظرانني .

وبعد عشر سنوات من نفس التاريخ ذهبت بنفس الهيئة وسلمت على نفس الوجوه بنفس الكلمات .

ـ أهلا وسهلا أيها السيد ، كيف صحتك ؟ ألا تزال جيدة ؟

وكان الكهل لم يتغير منظره أبدا ، فقد كان يقاوم الزمن كالشجرة المسنة ، ولكن « سيليست » كانت قد تغيرت ملامحها منذ أربعة أعوام لا أكثر حتى أنني لم أعرفها لأول وهلة . غيرها الزمان ولكنها مازالت نشيطة . وكانت تمشي بجسمها الطويل منحنية الى الامام حتى أن رجليها كانتا تشكلان تقريبا زاوية قائمة .

وكانت هذه المرأة تبذل جهدها في عملها ، وكانت تدهش عندما ترانى وكانت تقول لي عند كل ذهاب :

ـ هل هذه هي المرة الأخيرة التي أراك فيها يا عزيزي ؟

حقا أن وداع هذه الخادمة محزن ، وأن قنوطها أمام الموت الذي لا مفر منه كان يظهر جليا في وجهها وعينيها حتى أن وداعها كان يؤلمني يشعرني بحالة نفسية غريبة .

نزلت عن ظهر الجواد الى الأرض وكان الكهل الذي صافحته يقود الجواد الى المأوى الصغير الذي يصلح أن يكون اصطبلا ، ثم تبعت سيليست الى المطبخ الذي يصلح أن يكون غرفة طعام . ثم تبعنا الحارس ، وقد لاحظت للوهلة الأولى أن وجهه ليس كالمعتاد فأن القلق والضيق يظهران عليه فقلت له :

ـ هل تريد أيها الشيخ أن يسير كل شيء في العالم حسب رغبتك؟

فقال بصوت هادىء :

ـ إن ما حدث لي اليوم ، سبب لي هذا الضيق

فقلت : ماذا حدث لك أيها الكهل ؟ هل لك أن تقص على ذلك فأومأ برأسه سلبا ؟ وقال :

ـ لا ، لم يحن الوقت أيها السيد ، انني لا أريد أن يحصل مثل هذا بعدالآن ، فألححت عليه ، ولكنه رفض أن يبدأ بها قبل الغداء فعلمت أنها قصة مؤثرة . ثم قلت له قطعا للصمت :

ـ وهذه الجعبة ؟ هل لنا فيها شيء ؟

ـ فقال : نعم ، ستجدون ماتشاءون ، الحمد لله ! لقدكان نصيبي اليوم وافراً .

قال هذه الكلمات بشجاعة ، ولكنها شجاعة حزينة تبعث على الضحك ، فان شاربيه الضخمين الرماديين كانا على وشك السقوط من فوق شفته .

ثم أخبرتهما فجاءة أنني لم أر الحفيد الى الآن فقلت :

ـ وماريوس ؟ أين هو ؟ لماذا لا يظهر الآن ؟

فاعترت الحارس رجفة خفيفة ثم التفت الى بسرعة وقال :

ـ أريد إذن أن أقص عليك الآن أيها السيد كل شيء ، أجل انني أفضل ذلك ، وأن الذي أطويه في سري يتعلق بماريوس .

فقلت أين هو الآن ؟ فأجاب :

ـ إنه بالاصطبل ياسيدي ، وأنا أنتظر الساعة التي يظهر بها

فقلت وماذا يصنع هناك ؟ قال :

ـ إسمع أيها السيد . . . ثم تردد برهة وتغير صوته وإرتجف وظهرت على وجهه تجاعيد الشيخوخة ثم قال :

ـ إسمع ، لاحظت في هذا الشتاء أن هناك سارقا في الغابة ولكني لم أتمكن من القبض عليه . فقضيت هناك بضعة ليال ولكني لم أجد شيئاً . وفي هذه الاثناء أخذ يتزايد المسروق من الغابة ؛ فانفجرت غيظاً وحنقاً وطفقت أبحث عن المجرم ، ولكن عبثاً .

وفي أحد الايام ؛ عند ما كنت أنظف سروال ماريوس وجدت في جيبه أربعين قرشا ، فقلت في نفسي من أين لهذا الغلام بها ؟

ولبثت ثمانية أيام أفكر ، ثم رأيته يخرج كل يوم عند ما أرجع الى البيت لاستريح ، فعندها أخذت أراقبه ، ولكن دون أن يرتاب بي .

وفي ذات صباح رأيته يستعد للذهاب فنهضت على خلاف عادتي وتبعته وليس أحد يجاريني أيها السيد في التتبع . ثم قبضت عليه . قبضت على ماريوس الذي كان يسرق من أرضك أيها السيد ! نعم هو حفيد حارسك

فغلى الدم في رأسي وفكرت في ان أقتله في مكانه بضربة من يدي ، آه . نعم ضربته وقلت له اذهب ، وأوعدته أنك عندما تكون هنا سأضربه مرة أخرى عقابا له لاردعه ، وقد أثر في الحزن فهزلت كما ترى وأنك تعلم عقاب مخالفة كهذه المخالفة . ولكن ماذا كنت تعمل غير هذا ؟ أنه ليس له أب ولا أم وليس من أسرته إلا أنا ؛ فكنت أراقبه ولا أقدر أن أطرده ، على اني أنذرته أنه إذا عاد الى هذا العمل فان خاتمته سوف تكون على يدي . ولن أرحمه أبداً ، فهل صنعت حسنا أيها السيد ؟

فقلت له ماداً اليه يدي .

ـ نعم مافعلت أيها الشيخ ! إنك رجل شجاع

فقال : شكراً أيها السيد . وسأذهب الآن فأدعوه اليك ؛ فيجب أن تؤدبه أنت أيضا ليرتدع .

وكنت أعلم أنه ليس من اللائق أن أرد هذا الشيخ عن قصده ، فتركته يفعل ما يشاء ، فذهب يبحث عن الشقي ثم رجع به يجره من أذنه .

وكنت جالساً على كرسي من القش هيئة المستعد للحكم .

فظهر ماريوس أمامي كبر سناً وأكثر قبحاً من السنة الفائتة ، وظهرت يداه الكبيرتان ضخمتين ، فدفعه عمه أمامي وقال بصوت المربي :

ـ اعتذر لصاحب الأرض !

فلم ينبس الغلام ببنت شفة

فقبض عليه عمه من ابطيه ورفعه عن الارض وأخذ يضربه بقسوة اضطرتني الى أن أستشفع له فأخذ الولد يصيح

ـ شكراً ، شكراً أعدك أن . . .

ثم ألقاه الشيخ على الارض وأخذ يضربه على كتفيه وركبته قائلا له : ـ اعتذر

فقال الشقي أخيراً بصوت متهدج وطرف خاشع : أعتذر ، وعندئذ رفعه عمه وأطلقه بركلة جعلته دحرجته فوق الارض فنجا ، ولم أعد أراه في المساء

ولكن ظهر على الشيخ أنه تعب فقال : ـ إن أخلاقه سيئة .

وقال ونحن على مائدة الغداء .

ـ انني أحزن له أيها السيد ، أنت لا تعلم كم يشجيني أمره . فحاولت أن أسليه ولكن عبثاً . . .

ونمت باكراً استعداداً للصيد ، وكان كلبي نائماً عند رجل سريري حين أطفأت شمعتي .

استيقظت نصف الليل على صياح الكلب ، ولاحظت أن غرفتي ملأى بالدخان ، فقفزت من فراشي وأشعلت النور وهرولت نحو الباب ففتحته فدخل تيار من الدخان ، وكان البيت يلتهب !

فأقفلت الباب بسرعة ولبست سروالي وانزلت أولا كلبي من

النافذة بواسطة حبل مربوط فى سترتى ، ثم القيت ثيابى وسكينى وبندقيتى ونزلت أخيرا بالواسطة نفسها .

وأخذت أصيح بكل قواى : ـ كافاليه ! أيها الشيخ ! كافاليه ! .

ولكن الشيخ لم يستيقظ ، بل كان نائما نوم الضباط العميق ، وفى هذه الاثناء رأيت من أعلى النافذة أن الطابق الأسفل كالأتون المستعر ، ولاحظت أنه مملوء بالتبن الذى أشعل لتقوية الحريق . .

وعاودت الصياح بشدة قائلا : ـ كافاليه . .

ثم مر خاطر برأسى ، فصوبت بندقيتى الى النافذة وأطلقت رصاصتين فانكسرت الالواح الستة ، وفى هذة المرة سمع الكهل ولما رأى النار اعتراه ذهول ودهش فصحت به :

بيتك يحترق ، الق نفسك من النافذة ، اسرع ، اسرع . . وكان الدخان يخرج من النوافذ السفلية ، موازيا الحائط ثم يزحف الى الشيخ ويحيط به ، فألقى بنفسه فسقط على رجليه كالهرة . ثم مضى وقت ، وصار السقف يفرقع وكان الدرج أشبه بمدخنة طويلة ، وكان لسان النار الطويل يتصاعد فى الجو ويتمدد ، وكانت الشرارات تتناثر حول البيت فقال الشيخ بذهول :

ـ كيف حصل هذا ؟ فأجبت : ـ وضعت النار فى المطبخ

فقال : ـ من تظن انه وضعها ؟ فقلت فجاءة : ـ ماريوس !

ففهم الشيخ وقال : ـ آه ولأجل هذا لم يرجع بعد

ولكن فكرة رهيبة خطرت لى فقلت : وسيليست ، سيليست ؟ !

فليجب ، ولكن المنزل كان ينهار امامنا كتلا من الاحجار لامعة دامية ، وكانت المرأة المسكينة قد صارت حجرا أحمر ، من اللحم البشرى .

اننا لم نسمع صياحا . ولكن عند ما انتقلت النار للسقف المجاور لسقفنا فكرت فى جوادى وركض الشيخ ليخلصه .

وتمكن بمشقة من فتح باب الاصطبل فشاهد جسما خفيفاً سريعاً مر بين رجليه ولطمه فى أنفه ، وكان هذا ماريوس هارباً بكل قواه ، فنهض الشيخ ليقبض على الشقى ، ولكنه عرف انه لا يمكنه اللحاق به ، وأصابه جنون شديد ، ولما رأى انه لا يستطيع القبض عليه تناول بندقيتى الموضوعة على الارض قريباً منه فوضعها تحت ابطه قبل أن تبدو منى حركة واحدة ، وأطلقها وهو لا يعرف أن فيها رصاصات عديدة ، فأصيب الهارب فى ظهره وسقط على الارض مضرجاً بدمه ، فأخذ ينكث الارض بيديه ورجليه كأنه يريد أن يركض على أربع كالارانب الجريحة حين ترى الصياد قادما اليها .

فتألمت ، وأخذ الغلام ينازع ثم قضى قبل أن ينطفىء الحريق دون أن يقول كلمة .

وكان كافاليه واقفا بقميصه وساقيه العاريتين ، لا يتحرك وعند ما أتى رجال القرية حملوا حارسى وهو كالمجنون .

ذهبت الى المحكمة شاهداً وسردت الحادث بتفاصيله دون أن أبدل شيئاً ، فبرىء كافاليه ، ولكنه ترك البلدة فى اليوم نفسه ولم أعد أراه . .

هذه قصة صيدى أيها السادة . !

محمد ناجى الطنطاوى

بلياس وملزاند

للفيلسوف البلجيكى موريس ماترلنك

ترجمة الدكتور حسن صادق

(تابع)

ملزاند ـ خل سبيله . . . قد يباغتنا أحد . . .

بلياس ـ كلا . كلا . لن أطلق سراحك الليلة . أنت سجينتى ، وستظلين كذلك الليل كله . . .

ملزاند ـ بلياس ! بلياس !

بلياس ـ لن تستطيعى الفكاك بعد ذلك . . إنى أربط شعرك حول الأغصان . . . لم أعد أتالم وسطه . . أتسمعين قبلاتى ترقص على امتداده ؟ إنها تتسلقه ، ويجب أن تحمل كل شعرة إليك قبلة . . . أنظرى . . . أستطيع الآن أن أفتح يدى . . . أترين ؟ هاتان يداى مفتوحتين طليقتين ، ومع ذلك تعجزين عن هجرى والابتعاد عنى !

(يخرج من البرج يمام ويطير حولهما)

ملزاند ـ أوه ! آلمتنى . . . ما هذه الطير التى تحوم فى الفضاء حولى ؟

بلياس ـ اليمام خرج من البرج . . لقد أفزعته فطار

ملزاند ـ أنه يمامى يا بلياس ! إذهب من هنا ودعنى وحدى . . لن يعود إلى يمامى !

بلياس ـ ولماذا ؟

ملزاند ـ سيضل فى الظلام . . . دعنى أرفع رأسى . . . إنى ، أسمع وقع أقدام . . . اتركنى بربك . . . إن (جولو) مقبل علينا ! أعتقد أنه هو ! لقد سمع حديثنا . .